الباب الثالث

حرية التفكير والتعبير فى الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

١

موقف الإسلام من حرية التفكير والتعبير بوجه عام

يقصد بحرية التفكير والتعبير أن يكون للإنسان الحق فى أن يفكر تفكيراً مستقلا فى جميع ما يكتنفه من شئون وما يقع تحت إدراكه من ظواهر ، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه ، ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير .

وقد أقر الإسلام هذا الحق فى أوسع نطاق . فمنح كل فرد الحق فى النظر والتفكير وإبداء رأيه عن أى طريق شاء .

وعلى هذا المبدأ الجليل سار الرسول عليه السلام وسار الخلفاء الراشدون من بعده . فقد كانت حرية الرأى فى عهدهم جميعاً مكفولة ومحاطة بسياج من القدسية . وباستقراء تاريخ هذه المرحلة الذهبية التى تمثل مبادئ الإسلام أصدق تمثيل لا نعثر على أية محاولة من جانب أولى الأمر للحجر على حرية الآراء . بل إن العمل بهذا المبدأ قد ظل مرعيًّا فى عهد بنى أمية وصدر بنى العباس . فما كان الخلفاء فى هذين العصرين ليحاربوا إلا

الآراء التى يعتقدون أنها تهدد سلامة الدولة أو تنشر الفتنة بين الناس . وكان هؤلاء وأولئك يستوحون ما يسيرون عليه فى هذا الصدد من روح الإسلام ومبادئه . بل إن احترام بعض الخلفاء لحرية الرأى فى عصر بنى أمية وبنى العباس قد وصل إلى حد جعلهم يتحرجون من وضع أى قيد فى هذا السبيل . فقد كان الناس فى عهد عمر بن عبد العزيز والمأمون بن هارون الرشيد وغيرهما يتناقشون بكامل الحرية وفى حضرة الخليفة نفسه فى شأن الأسرة المالكة ومبلغ استحقاقها للخلافة .

٢

موقف الإسلام من حرية التفكير العلمى

ويدخل فى الحرية الفكرية ما يسمونه بالحرية العلمية وحرية التفكير العلمى ، وهى أن يكون لكل فرد الحق فى تقرير ما يراه فى صدد ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات والإنسان ، والأخذ بما يهديه إليه تفكيره وما يقتنع بصحته من نظريات ، والتعبير عن رأيه بمختلف وسائل التعبير .

ولا يختلف موقف الإسلام حيال هذه الحرية الفكرية

الخاصة عن موقفه حيال الحرية الفكرية العامة الذى بيناه فيما سبق .

فالإسلام لم يحاول مطلقاً أن يفرض نظرية علمية معينة بصدد أية ظاهرة من هذه الظواهر . ولم يعرض القرآن ولا السنة الشريفة لتفاصيل هذه الأمور . وكل ما فعله القرآن فى هذه الناحية أنه استحث العقول على النظر فى ظواهر الكون ، وحفز الناس على التأمل فى هذه الشئون واستنباط قوانينها العامة ، وأثار فى نفوسهم حب الاستطلاع حيال الأمور التى لا تثير الانتباه بطبعها لتكرر حدوثها وسيرها على وتيرة واحدة وإيلاف الناس النظر إليها كشئون الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب وتتابع الفصول وتناسل الحيوان وتكاثر النبات وطفو بعض الأجسام على الماء ونزول المطر . . . وما إلى ذلك من مسائل العلوم والفنون ، فبيّن لهم أن هذه الأمور جديرة بالتأمل ، وأن فيها مجالا كبيراً للنظر والعبرة والبحث العلمى .

وفى هذا يقول الله تعالى : « أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء ؟ ! » (٤٨) . ويقول : « إن فى خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء

من ماء فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريفِ الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض : لآيات لقوم يعقلون » [٤٩] . ويقول : « ألم تر أن الله يزجى سحابًا ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله رُكاما ، فترى الوَدْق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمَّن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار * يقلّب الله الليل والنهار ؛ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » [٥٠] . ويقول : « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » [٥١] ، ويقول : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت » [٥٢] . . .

وهكذا نرى توجيه الله تعالى لنا إذ طَوَّف بنا جميع أنحاء الكون سمائه وأرضه ، حيّه وميته ، حيوانه ونباته وإنسانه ، لا لشىء إلا لحثّ العقول على النظر والتدبُّر فى هذه الظواهر واستنباط القوانين العامة الدقيقة التى تحكمها وتسير بمقتضاها ، ولنتخذ من ذلك دليلا على قدرته وحسن صنعه : « صنعَ الله الذى

أتقن كل شيء » .

وفى جميع هذه الآيات وما إليها التى يزخر بها الكتاب الكريم لا نشتم أية رائحة لفرض نظرية علمية معينة ؛ ولم يقصد القرآن بالتوجيهات الواردة فيها إلا ما ذكرناه من حث العقول على النظر فى محتويات الكون ، ثم ترك بعد ذلك لكل فرد كامل الحرية فى تقرير ما يراه ؛ والانتصار له ؛ واعتناق ما يقتنع بصحته من نظريات .

ولا أدل على ذلك من أن القرآن فى إجابته عن سؤال وجه إلى الرسول عن مراحل القمر وأسباب تزايد قرصه وتناقصه ، قد تحاشى أن يدخل فى تفاصيل هذه الأمور الفلكية وقوانينها ، حتى لا يفرض نظرية علمية على العقول ، كما فعلت الكاثوليكية المنحرفة من قبل ، وحتى لا يحجر على الأذهان النظر فى هذه الأمور ، واكتفى بأن يذكر بعض فوائد القمر ، وأنه يحدد مواقيت الشهور والأيام التى تؤدى فيها شعائر الحج . وفى هذا يقول الله تعالى : « يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج » [٥٣] . فكأنه يقول لهم يكفى أن تعلموا فيما يتعلق بصلة الأهلة بشئون الدين أنها مواقيت للناس فى الشهور والصيام وشعائر الحج . أما ما وراء ذلك من أسباب تزايد

قرص القمر وتناقصه وخسوفه أحيانًا أو حجبه عن النظر وعلاقته بالشمس والأرض . . . أما هذه الأمور وما إليها فأترك لعقولكم كامل الحرية فى بحثها والاهتداء إلى كنهها وأسبابها .

ولا أدل على ذلك أيضًا من أن الرسول عليه السلام حينما أشار على بعض الناس بعدم تأبير النخل ، أى تلقيح إناثها بطلع ذكورها ، ثم تبين أن ذلك يؤدى إلى عدم إثمارها ، ذكر أنه إنما تحدث فى ذلك برأيه الخاص ، وأن رأيه الخاص عرضة للخطأ والصواب ، وأن هذا الحكم يسرى على كل ما يتحدث عنه من أمور الدنيا ، وأن للناس الحق فى البحث فى أمور دنياهم وعلاجها على الوجه الذى تهديهم إليه تجاربهم وأفكارهم ، وأنهم قد يكونون أعلم ببعضها من الرسول نفسه ، وأن الأمور التى كُلف تبليغها إلى الناس من قبل الله ، وهى التى لا يمكن أن يتطرق إليها الشك ، مقصورة على شئون الدين : عقائده وشرائعه. ونص هذا الحديث كما أخرجه مسلم فى صحيحه عن موسى بن طلحة عن أبيه مرفوعًا : « إن كان ذلك ينفعهم فليصنعوه ، فإنى إنما ظننت ظنًّا ، فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به ، فإنى لن أكذب على الله عز وجل » . وفى رواية رافع بن خديج : « إنما أنا بشر ؛ إذا

أمرتكم بشيء من أمر دينكم فخذوا به ؛ وإذا أمرتكم بشيء من رأيي ؛ فإنما أنا بشر » . وفى رواية عائشة : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » [٥٤] .

٣

تعسف بعض الكتاب فى تفسير آيات القرآن وفق النظريات العلمية الحديثة

وانحرافهم فى هذا عن مدلول اللغة وأغراض الكتاب الكريم

ومن هنا تظهر لنا بشاعة الجناية الكبرى التى جناها بعض من أقحموا أنفسهم فى الدراسات الإسلامية إذ يحاولون أن يفسروا بعض آيات القرآن تفسيراً يجعلها منطوية على النظريات العلمية الحديثة ، ويسيئون بذلك أبلغ إساءة ، من حيث لا يعلمون ، إلى الإسلام والقرآن من عدة وجوه :

١ — فهم أولا يتعسفون كل التعسف فى تفسير آيات الكتاب الكريم ، وتحميلها ما لا تحتمل من المعانى وما لم يفهمه العرب منها ، ولا يمكن أن يفهمه منها ملمّ باللغة العربية وأساليبها فى البيان ، حتى يتاح لهم أن يقرروا أن القرآن قد

سبق البحوث الحديثة فيما قالت به من نظريات وما اكتشفته من قوانين . أو قد تنبأ بما عسى أن تنتهى إليه من نتائج . والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر فيما يخرجه هؤلاء من كتب وما ينشرونه من مقالات .

فمن ذلك مثلا ما يقوله أحدهم فى فصل عقده فى كتابه عن وحدة الخلق إذ يفسر قوله تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة . وجعل منها زوجها ليسكن إليها » [٥٥] ، بأن النفس هى البروتون وأن زوجها هو الألكترون ، وهما العنصران اللذان تتألف منهما الذرّة . وفى ذلك يقول ، بعد كلام كثير عن الجسيمات التى تتألف منها الذرّة : « وهذه الحقيقة العلمية التى يتيه بها العصر الحديث قد جاء بها القرآن الكريم منذ ألف وأربعمائة سنة فى صراحة ووضوح ، إذ تقرر الآية ١٨٩ من سورة الأعراف أن كل ما خلق الله إنما خلقه من نفس واحدة وجعل منها زوجها . أليست هذه هى البروتونات والألكترونات . . . الكهارب الواحدة موجبة وسالبة ، أى النفس الواحدة . . . الزوجية الجنس بين موجب وسالب» [٥٦] — ومن الغريب أنه كان يكفى هذا الكاتب لاتقاء تخبطه هذا وتعسفه فى تفسير الآية الكريمة أن يقرأها كاملة ويتأمل معناها إذ تقول : « هو

الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرّتْ به ، فلما أثقلت دعوَا اللهَ ربَّهما لئن آتيتنا صالحًا لنكونن من الشاكرين » .

ومن ذلك أيضًا ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقده عن الأقمار الصناعية وغزو الفضاء إذ يفسر قوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » [٥٧] ، فيزعم أن الآية تشير إلى الأقمار الصناعية وسفن الفضاء وما تحمله من دواب . وفى ذلك يقول : « أطلقت روسيا أجهزة علمية سميت بالأقمار الصناعية تدور حول الأرض ، وأتبعتها أجهزة أخرى تحمل نوعًا من الكائنات الحية لتدرس تأثير الانطلاق والارتفاع والإشعاع والضوء والجاذبية . . . وهذه الأقمار التى خرجت من الأرض فى الوقت الذى انتشر فيه الإلحاد لتتحدث عما فى الكون الغامض وتزيح بعضًا من هذا الغموض ، ألا يمكن أن تكون هذه هى الدابة التى تنبأ بها القرآن الكريم فى سورة النحل (صوابه فى سورة النمل) فى الآية ٨٢ التى تقول : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » [٥٨] فلعله يزعم أن الكلبة « لايكا »

التى وضعها الروس فى أول تجربة لسفن الفضاء قبل أن يضعوا فيها أناسيّ من البشر قد تكلمت بلغة الكلاب فى أثناء دورانها حول الأرض فنعت على الآدميين عدم إيمانهم بآيات الله !!

ومن ذلك أيضًا ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقده عن « الغُثاء الأحْوَى» إذ يفسر هذا الغُثاء فى قوله تعالى : « والذى أخرج المرعى * فجعله غثاءً أحْوَى » [٥٩] بأن المقصود منه الفحم الحجرى . وفى ذلك يقول : « لبثت هذه الكتل الضخمة من الأشجار والنباتات مطمورة فى باطن الأرض سنين عديدة حتّى اكتشفها الإنسان واستعملها وقوداً سماه فحمًا . أليس ذلك ما يقول به القرآن إذ أن الله هو الذى أخرج المرعى ثم جعله غثاء أحوى » [٦٠] . — فبحسب ما يراه هذا الكاتب يكون الله تعالى قد مَنّ على الناس فى القرن السابع الميلادى بتطور چيولوچى لم يكونوا قد عرفوه بعد ولا يستطيعون فهمه من عبارة الآية !

ومن ذلك ما يقوله المؤلف نفسه فى فصل عقده عن انشقاق القمر ، إذ يفسر قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » فيقول : « إن القمر يقترب من الأرض ، وهذا الاقتراب وإن كان يسير حثيثًا (يريد أن يقول بطيئًا فجاء بكلمة تفيد

ضد المعنى الذى يريده) إلا أنه بتوالى العصور سيجعل القمر يقترب من منطقة تفوق الجاذبية منها تلك التى تجعله على بعده من الأرض الذى يحفظه . . . وإن أول علامة على دخول منطقة الخطر هو حدوث زلازل مدمرة فى القمر حتى يصل الحال إلى زلزلة عنيفة دائمة تسبب انشقاقه . وإذا انشق وتهاوى مكونًا طبقات حول الأرض كما فى زحل ، أفلا يؤثر ذلك فى جاذبية الكواكب وأجرام أخرى تمسكها جاذبية القمر نفسه ؟ . . . فهلا يكون ذلك دليلا على قيام الساعة ؟ . . . ويكون انشقاق القمر لذلك دليلا على اقترابها ؟ أوَلا يكون القرآن قد سبق العلم الحديث بعدة قرون ؟ أوَلا يلقى ذلك بضوء على تفسير الآية الأولى من سورة القمر التى تقول : "اقتربت الساعة وانشق القمر" ؟ ! [٦١] .

وهذا قليل من كثير مما حواه هذا الكتاب العجيب وما تحويه كتب أخرى على شاكلته . وانظر إلى أى مدى يصل التعسف بهؤلاء فى تفسير آيات الذكر الحكيم وتحميلها ما لا تحتمل ، وفى التلاعب بكلام الله واتخاذه هزواً .

٢ — ولا يقتصر الأمر على تعسف هؤلاء فى تفسير آيات الذكر الحكيم وتحميلها من المعانى ما لا تحتمل ؛ بل إنهم

بمسلكهم هذا يعرّضون كلام الله للكذب والتكذيب : تعالت كلمات الله عن ذلك علوًّا كبيراً. وذلك أن كثيراً من النظريات العلمية ليست ثابتة . ولم تقل الكلمة النهائية فيما تعالجه من ظواهر . وقد تظهر كشوف أخرى تبين عن خطئها أو عن نقصها. فإذا فسر كتاب الله على وجه يتفق مع نظريات حاضرة ، ثم ظهر عدم صحتها فيما بعد ، فإن هذا يدعو إلى تكذيب كتاب الله ، أو على الأقل زعزعة ثقة الناس بحقائقه .

٣ — وهم بذلك أيضًا يصمون الإسلام بوصمة هو منها براء إذ يحاولون بذلك أن يظهروا القرآن بمظهر كتاب يقرر النظريات العلمية على أنها عقائد دينية نزل بها الوحى الأمين من قبل الله تعالى . وهذا مخالف لاتجاه الإسلام وروحه ، ولما يحث عليه القرآن من التأمل فى ظواهر الكون واستنباط قوانينها العامة ، ولما يقرره من مبادئ سامية تتعلق بحرية التفكير والتعبير .